۱۶۶۰۸

مجله	حضارة الاسلام
تاریخ نشر	جمادی الاولی ۱۳۹۴
شماره	سوم سال پانزدهم
شماره مسلسل	
محل نشر	دمشق
زبان	عربی
نویسنده	عماد الدین خلیل
تعداد صفحات	۱۴ - ۲۹
موضوع	القرآن والواقعة التاریخ - ۲
سرفصلها	قرآن و تاریخ
کیفیت	
ملاحضات	

القرآن والواقعة التاريخية

ـ ٢ ـ

للدكتور عماد الدين خليل

إن اي حدث تاريخي ـ يجيبنا القرآن الكريم من خلال حشد كبير من آياته ـ انما يجيء تعبيرا عن ارادة الله التي تصوغه من خلال ارادة الانسان ، او مباشرة عن طريق اتصالها بالزمن والتراب . ولا يمكن دراسة تاريخ الكون ، وتاريخ الاحياء ، وتاريخ البشرية الا من هذا المنطلق . إن الفعل الالهي يتخذ شكلين لخلق الحدث وصياغته ، أولهما مباشرة الفعل التاريخي ، تلك (المباشرة) التي تتراوح بين التساوق مع نواميس الطبيعة واعتمادها في (التنفيذ) ، وبين تجاوز مقاييسها ورفض نسبياتها فيما يعرف بالمعجزات . وفي كل مرة كان الفعل الالهي المباشر يجيء لكي (يذكر) الناس بخالقهم ، وبكلمته النافذة في الكون والعالم بقدرته اللانهائية على (الفعل) ، ويجعلهم حاضرين دوما بمواجهة ربهم تلقيا عنه ، وتعبدا له ، وشكرا على نعمائه التي لا تكف عن التمخض والتدفق والابداع .. الله الذي (.. اذا قضى امرا فانما يقول له : كن فيكون)(١) . .

ان هذه (المباشرة) التي لا ندري بداياتها ابدا لانها موازية لوجود الله الابدي ومتفجرة عن قدرته السرمدية على الفعل ، هي التي خلقت الكون في ستة ايام ، واقتطعت الارض من كتلة السماوات الدنيا لكي تصوغها بما يتيح لها استقبال الحياة باشكالها المختلفة التي تتدرج من البدائية في عوالم النبات والحيوان وتنتهي بالانسان الذي انبثق عن فعل الهي مباشر ، لا ندري الزمن الذي استغرقه سيما وان مقاييسنا الزمنية

(١) مريم ٣٥ .

لا تعدو شيئا ازاء المقاييس الالوهيه الشاسعة البعيدة ، ومن ثم فلا داعي لان نقف فنجري مقارنه بين معطيات القرآن الكريم عن خلق آدم (الاول) وبين نظريات النشوء والارتقاء والاختيار الطبيعي التي قال بها دارون وغيره من (الطبيعيين) ، ما دام الامر لا يعدو ان يكون تطورا في عملية خلق آدم بارادة الله ، او خلقه مباشرة بما هو عليه من تكوين نحن ثماره المحمولة في مجريات القوانين الوراثية المعروفه ... ان الله قد خلق آدم كفعل مباشر لا نملك مقاييسه الزمنية الكافية ، وهو خلق يجيء متمما لخلق الارض وتهيئتها ومساحات واسعة من السماء الدنيا ، لاستقبال هذا المخلوق الفاعل الذي اتيح له ان يتخذ مكانه في الارض كخليفة لله وسيد للعالمين .

ولا بد ان نقف هنا قليلا لنتلمس ابعاد المسألة الزمنية في القرآن .. وذلك اننا نلتقي في القرآن ، بين حين وآخر ، باشارات ولمحات عن البعد الزمني في الكون ، يبدو إعجازها بمجرد مقارنتها بنسبية (آينشتاين) التي ادخلت الزمن كبعد جديد رابع في دراسة الكتلة الكونية ، نقتطف منها هذه الآيات ذات الدلالة العميقة :

(قال : كم لبثت ؟ قال : لبثت يوما او بعض يوم)(٢) .

(ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا الا ساعة من نهار)(٣) .

(يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ، وتظنون ان لبثتم الا قليلا)(٤) .

(قالوا : لبثنا يوما او بعض يوم فاسأل العادين)(٥) .

(ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة)(٦) .

(ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره الف سنة مما تعدون)(٧) .

(يسأله من في السماوات والارض كل يوم هو في شأن)(٨) .

(كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية او ضحاها)(٩) .

(اذ يقول امثلهم طريقة ان لبثتم الا يوما)(١٠) .

(٢) البقرة ٢٥٩ .
(٣) يونس ٤٥ .
(٤) الاسراء ٥٢ .
(٥) المؤمنون ١١٣ .
(٦) الروم ٥٥ .
(٧) السجدة ٥ .
(٨) الرحمن ٢٩ .
(٩) النازعات ٤٦ .
(١٠) طه ١٠٤ .

وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون)(١١) .

(أدعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب)(١٢) .

(ان ربكم الله الذي خلق السماوات والارض في ستة ايام)(١٣) .

ان بين هذه الايات المنبثة في ثنايا القرآن ـ وغيرها كثير ـ ترابطا وانسجاما رياضيا دقيقا ، وان فيها تاكيدا مستمرا على الحقيقة (الطبيعية) الكبرى التي لم تتكشف بعض جوانبها للعلم الا اخيرا ، تلك هي ان الزمن في الارض والزمن في امداء الكون ليسا سواء ، وان هناك فرقا شاسعا بين الوحدة الزمنية الارضية والوحدة الزمنية الكونية ، تبلغ تارة ـ وعلى سبيل المثال ـ ٣٦٥ر٠٠٠ ضعفا وتبلغ تارة اخرى ١٨ر٢٥٠ر٠٠٠ ضعفا بحساب القرآن الكريم نفسه ، الامر الذي يفسر لنا ظن الناس يوم القيامة ان حياتهم الدنيا لم تكن سوى ساعة من نهار ، كما يعطينا ـ على المستوى التاريخي ـ مفتاح هذا التاجيل المتطاول لمصائر الامم والقيادات الظالمة حتى لنتصور احيانا انه قد غض الطرف عنها ، وانها سوف لن تبلغ مرحلة سقوطها ابدا .

إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) يحدثنا ، مزيلا هذه الهواجس من النفوس العلقة المتسرعة ذات التجارب النسبية المحدودة (ان الله يمهل ولا يهمل) وانه (يملي للظالم حتى اذا اخذه لم يفلته) . وهذا الامهال يبدو في حسابنا الارضي طويلا قد يتجاوز السنوات وقد يمتد الى عقود السنوات وربما قرونها ، لكي تحق كلمة الله على الظالمين ، افرادا وجماعات ، ولكي يأخذ العدل الإلهي مجراه . لكن هذه الايام والسنين والعقود والقرون لا تعدو في زمن الله يوما او بعض يوم ، ومن ثم كان إمهال الله بطيئا في حسابنا ، سريعا سرعة مذهلة في حساب الملأ الأعلى . واذا كنا نحن نستبطىء عقاب الله حينا فربما كان الملأ الأعلى يتسرعه احيانا . وما كان لنا اذن الا ان نذعن لامر الله وتتيقن نفوسنا عدله الازلي الشامل الذي يتجاوز نسبيات الزمان والمكان الى القيم المطلقة التي لا ينحرف بها ميزان ولا يطيش عندها جزاء او عقاب (ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده ، وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون) (١٤) .

اما على مستوى الخلق الكوني فان لنا ان نتصور ـ لا بحسابنا الارضي ، ولكن بحساب المطلقات

(١١) الحج ٤٧ .
(١٢) غافر ٤٩ .
(١٣) الاعراف ٥٤ .
(١٤) الحج ٤٧ .

القرآنية ـ الامداء الزمانية للايام (الستة) التي يحدثنا عنها القرآن والتي صمم الله سبحانه فيها بناء السماوات والارض ، واعد كرتنا لاستقبال الحياة وانمائها وتطويرها على يد الانسان خليفة الله في الارض وسيد مخلوقاتها ، وكيف تم هذا التصميم والاعداد المعجزين القائمين على قوانين وسنن ونواميس غاية في الدقة والانضباط والاتقان ، ليس اقلها قوانين الجاذبية وتصريف الرياح وحركة الليل والنهار ، وانبات النخل والعنب والرمان من قلب التربة وتوازن نسب مكونات الغلاف الغازي ، وتحديد بعد الارض عن الشمس والقمر وخلق الانعام ، وارساء الجبال ، وتكثيف الدخان والغاز الى كتلة صلدة صالحة للحركة والبناء ، وتزيين السماء الدنيا بالمصابيح الزرقاء ، واعداد الارض كلها بما تحتاجه من ماء ، وتفجير الحياة في الطين اللازب . . . . نتصور ـ بعد هذا كله ـ ماذا تريد هذه الآية ان تقوله لنا : (يسأله من في السماوات والارض ، كل يوم هو في شان) ؟ وقلن اي يوم هذا ؟ انه ذلك الذي قلنا انه ربما يبلغ ١٨ر٢٥٠ر٠٠٠ يوما من أيامنا الارضية !!

انا ـ حتى على مستوى خلق الانسان ـ نجد في المسالة الزمنية كما يطرحها القرآن ، خلا مقنعا للتناقض القائم ، منذ بدايات الداروينية الاولى ، بين القائلين بالخلق المباشر المستقل والقائلين بنظرية التطور الطبيعي والارتقاء التدريجي . ففي لحظة كونية واحدة ، تبلغ بحسابنا ملايين الوحدات الزمنية ، يصدر الامر الإلهي بخلق آدم من الطين اللازب المزوج بالماء . ولنتمعن في هاتين الآيتين : (والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشي على بطنه ، ومنهم من يمشي على رجلين ، ومنهم من يمشي على اربع ، يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شيء قدير)(١٥) (وهو الذي خلق من الماء بشرا ، فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا)(١٦) !!

وهكذا . . فسواء قلنا بان عملية الخلق هذه تمت مباشرة ، ام عبر سلسلة طويلة من التطورات والتغيرات الطبيعية المتمخضة عن لقاء المياه بالطين اللازب في فجر الابداع الإلهي على الارض ، فاننا سوف لن نخرج عن الاطار الزمني الذي يطرحه القرآن نفسه ، وسوف لن نكتشف ابدا (سر الروح) الذي

(١٥) النور ٤٥ .
(١٦) الفرقان ٥٤ .

ابدع الحياة والذي عجز عنه الطبيعيون كافة ، وقال عنه القرآن، ردا على تساؤلات المشركين : (ويسالونك عن الروح قل : الروح من امر ربي ، وما اوتيتم من العلم الا قليلا) .. هذا مع رفضنا القاطع لاية محاولة تسعى الى قسر الآيات في القرآن لكي تساير معطيات العلم الحديث القلقة المتغيرة .. الا اذا قادتنا لغة القرآن الواضحة نفسه الى الحقيقة مباشرة دونما تقسف او تكلف او التواء .

وقبل ان نمضي في بحثنا هذا ، نقف قليلا عند هذه الآيات التي اعتمدناها في استخراج اليوم القرآني البالغ ١٨ر٢٥٠ر٠٠٠ يوما ارضيا (سال سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع . من الله ذي المعارج . تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين الف سنة !! فاصبر صبرا جميلا . انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا) (١٧) !!

ان الملائكة والروح ، وقد تجردت من عوائق الجسد والتراب التي تقيد الانسان وتجاوزت قوانين الزمان والمكان الارضية النسبية ، تصعد الآن في طريقها الى بارئها عبر معارج وآمداء لا يحيطها قط خيال انسان ، مهما امتد به الخيال ، لانها ستجتاز هذه الامداء التي انتشر فيها مائة الف مليون مجرة في كل منها مائة الف مليون شمس ، تحيط بكل منها كواكب وسيارات كمجموعتنا واكبر .. ستجتاز هذه كلها في يوم واحد ، لكنه يوم كوني ليس كايامنا ، بين القرآن بعض اطواله ، واشار اليه (اينشتاين) في نسبيته التي قادته الى آفاق جديدة رحبة في ميدان العلوم الطبيعية والرياضية .. حتى انه ليقال — على سبيل المثال — ان وصول الانسان الى احدى المجرات القريبة يحتاج الى خمسمائة سنة ضوئية ، وان هذا الانسان نفسه اذا تيسر له جهاز ينقله عبر الفضاء بسرعة الضوء فانه سيختزل هذه المدة الى ما يقرب من خمسين سنة فحسب !!

ان الملائكة والروح المتخفف من اعباء الجسد وشد الاعضاء وكثافة التراب لا يعجزها ان تفوق في حركتها سرعة الضوء ومن ثم فهي تعرج الكون كله في طريقها الى خالق الكون جل وعلا في يوم واحد في حساب حركتها الزمنية عبر الكون ، لكنه في حسابنا؟ ومن ثم ينادي الله في علاه، رسوله الكريم ، وهو يشقى بدعوة اناس يرون يوم الحساب بعيدا كبعد السراب (فاصبر صبرا جميلا. انهم يرونه بعيداً . ونراه قريبا)(١٨) !!

(١٧) المعارج ١ — ٧ .

(١٨) انظر بالتفصيل بحث (القرآن والبعد الزمني) للمؤلف ، مجلة الوعي الاسلامي .

الا ان القرآن في نطاق تجربتنا الارضية ، يستخدم — لواقعيته — المقاييس التي تصلح لهذه التجربة ، انه — بصدد المسالة الزمنية — يذكر بوضوح (ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السماوات والارض .) (١٩) .. ويتحدث عن تسخير الريح لسليمان عليه السلام (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر) (٢٠) . وهذا التاكيد المستمر على فكرة (الزمن)وتقسيماته التي رسمت من أجل تمكين الانسان من تاريخ ايامه في الارض ، كان من بين الاسباب العديدة التي دفع الاسلام العرب بها الى الاهتمام المتزايد بالدراسات التاريخية ، ومكنهم — بعد عقود قليلة — من تحويلها الى علم له منهجه واساليب بحثه ، بعد ان لم يكن العصر الجاهلي سوى اقاصيص تغلب عليها الخرافة، لاسماء يسودها طابع المبالغة ، وايام ينظر فيها (الراوي) الى الاحداث بمنظار القبيلة التي ينتمي اليها .

ولم ينقطع فعل الله المباشر في الارض بظهور آدم وذريته الذين منحهم الله العقل والروح والارادة ، وعلمهم الاسماء كلها ، وحملهم مسؤولية السمع والبصر والفؤاد .. بل استمرت مباشرة الفعل ، ومن خلال الانسان نفسه ، مما سنطلق عليه (الفعل الإلهي غير المباشر) .. وهل للانسان ذي القدرات النسبية ان يعتمد فعله الخاص لمجابهة العالم؟ ان آدم عليه السلام منذ لحظة سقوطه الاولى كان بامس الحاجة الى فعل الله وهدايته ، قبل ان يضيع وذريته الى الابد .. وسرعان ما استجاب له الله سبحانه ذو القدرة الفعالة المريدة المطلقة التي لا تكف عن الفعل والابداع .. أزاء عجز الانسان ، ونسبية معطياته الحسية، وتقطع فعله ، واتكائه الدائم على ارادة فوق ارادته ، ورؤية اوسع من رؤيته (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعا ، فاما ياتينكم مني هدى، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون) !!

ومنذ ذلك الوعد بالهداية والله سبحانه يختار انبياءه ورسله من العالم بفعل مباشر ، لكي يؤدو دورهم التاريخي المناسب للمرحلة التي بعثوا فيها .. ثم جاءت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم آخر حلقة في عملية الارسال الطويلة هذه ، من اجل منح بني آدم الطريق المستقيم في حياتهم الدنيا ، وهي الحلقة التي

(١٩) التوبة ٣٦ .

(٢٠) سبا ١٢ .

حبكت بشكل نهائي ، واستكملت كل اسبابها في كتاب الله والسنة نبيه صلى الله عليه وسلم لكي تبقى النبي يوم البعث صوتا واضحا يقود بني آدم الى الصراط المستقيم . ولقد اعلن القرآن الكريم بنفسه ، في حجة الوداع ، هذا الاكتمال (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا) . وهكذا كانت جميع النبوات فعلا الهيا مباشرا يتمثل في اختيار الرجل الذي سيحمل الامانة ، وفي تهيئته — قبل هذا — على عين الله ، ثم في ارساله نبيا الى قومه والى العالم كله ، وفي الاتصال الدائم به عن طريق الوحي الذي يجيء على مكث حينا بعد حين ، او بواسطة لقاء ما يتم عن طريق استلام (الكتاب) الذي سيقود الانسان الى الطريق .

وكان يرافق هذه النبوات سلسلة من الافعال المباشرة الاخرى ، تجيء حينا منسجمة مع نواميس الطبيعة وسننها وتنصب حينا آخر بمعزل عن هذه النواميس او مخترقة اياها ، فيما نسمي بالمعجزات التي كانت بمثابة (هزة) تحرك الانسان وتسقط عن قلبه وعقله واحاسيسه جدار (الرين) الذي احاط بها فصده عن الايمان الواضح بالله واتباع انبيائه المرسلين .

فقصة بني اسرائيل والبقرة الصفراء(٢١) ، والعزير(٢٢) ، وابراهيم والطير(٢٣) ومريم والطعام(٢٤) وزكريا وابنه(٢٥) ، وصالح وناقته(٢٦) ، ومطاردة فرعون لبني اسرائيل(٢٧) ، وممارسات المسيح الخارقة(٢٨) ، وغيرها من المعجزات التي يمكن ان يرجع اليها القارئ في الجدول الذي اوردناه عن قصص الانبياء وتواريخهم في اول هذا البحث .. كلها جاءت تمثل فعلا مباشرا خارقا للنواميس الطبيعية ، في مراحل مبكرة من التاريخ ، كانت النبوات خلالها بامس الحاجة الى اسناد (ميتافيزيقي) ، والى (هزات) تتميز بالتحدي والتخويف والغرابة ، لتحريك افئدة اقوامهم المتجمدة ، ولفت انظارهم الكسولة الى قدرة الله .. ولكن القرآن الكريم ما يلبث ان يحدثنا بواقعيته الصادقة ان هذا (الاسلوب) لم يجد مع كثير من الاقوام السابقة ، وانه اجدر الا يجدي مع الاقوام اللاحقة ، وبضمنهم العرب الذين بعث اليهم

(٢١) البقرة ٦٧ — ٧٣ .
(٢٢) البقرة ٢٥٩ .
(٢٣) البقرة ٢٦٠ .
(٢٤) آل عمران ٣٧ .
(٢٥) آل عمران ٣٨ — ٤٠ .
(٢٦) الأعراف ٧٣ .
(٢٧) يونس ٩٠ — ٩٣ .
(٢٨) آل عمران ٤٥ — ٤٩ ، المائدة ١١ — ١١٥ .

محمد صلى الله عليه وسلم .. ومن ثم كانت معجزة القرآن المنسجمة مع النواميس وجدها كافية لحمل اجيال البشرية الى طريق الاسلام على مر القرون :

(وما منعنا ان نرسل بالآيات الا ان كذب بها الاولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ، وما نرسل بالآيات الا تخويفا) (٢٩) .

(ما آمنت قبلهم من قرية اهلكناها افهم يؤمنون ؟) (٣٠) .

(فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا : لولا اوتي مثل ما اوتي موسى ، او لم يكفروا بما اوتي موسى من قبل ؟ قالوا : ساحران تظاهرا ، وقالوا : انا بكل كافرون) (٣١) . (وقالوا : لولا انزل عليه آيات من ربه ، قل : انما الآيات عند الله وانما انا نذير مبين . اولم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ؟ ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) (٣٢) .

* * *

اما الفعل المباشر المتساوق مع النواميس الطبيعية والمسخر لها لخدمة الجماعة المؤمنة ، وضرب العوائق التي تصدها عن تادية مهمتها ، وانزال العقاب بالذ يصدون عن سبيل الله ويكفرو بنعمائه .. فهي تحتل مساح اكبر بكثير في القرآن الكريم ، ونح نستطيع ان نتلمسها على وجه الخصوص في الآيات الكثيرة المتعل بحركة الدعوة في عه الرسول صلى الله عليه وسل والتي اشبعها المفسرون بحثا ف اسموه (باسباب النزول) . ولن الآن ان نستعرض عددا من نماذ هذا الفعل الالهي المباشر القرآن :

(لقد كان لسبا في مسكنهم آ جنتان ، عن يمين وشمال ، كلوا رزق ربكم واشكروا له بلدة ط ورب غفور . فاعرضوا فارسلن عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتي جنتين ذواتي اكل خمط واث وشيء من سدر قليل . ذل جزيناهم بما كفروا وهل نجاز الا الكفور ؟ وجعلنا بينهم وبي القرى التي باركنا فيها قر ظاهرة ، وقدرنا فيها السير ، سي فيها ليالي واياما آمنين . فقالوا ربنا باعد بين اسفارنا وظلم انفسهم ، فجعلناهم احاد ومزقناهم كل ممزق ، ان في ذا لآيات لكل صبار شكور) (٣٣) .

(٢٩) الاسراء ٥٩ .
(٣٠) الانبياء ٦ .
(٣١) القصص ٤٧ .
(٣٢) العنكبوت ٥٠ — ٥١ .
(٣٣) سبأ ١٥ — ١٩ .

(فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليهم حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من اغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) (٣٤) .

(وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ، فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكي القرى الا واهلها ظالمون) (٣٥) .

(بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر ، أفلا يرون انا ناتي الأرض ننقصها من اطرافها ، أفهم الغالبون ؟) (٣٦) .

(ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله) (٣٧) .

(ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة او تحل قريبا من دارهم حتى ياتي وعد الله ان الله لا يخلف الميعاد) (٣٨) .

(قد مكر الذين من قبلهم فاتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم واتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) (٣٩) .

(ولقد اخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون) (٤٠) .

(فارسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين) (٤١) .

(فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم ، فارسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون (٤٢)

(فكذبوه فانجيناه والذين معه في الفلك واغرقنا الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوما عمين) (٤٣) .

(فاخذتهم الرجفة فاصبحوا في دارهم جاثمين) (٤٤) .

(ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات ...) (٤٥) .

(٣٤) العنكبوت ٤ .
(٣٥) القصص ٥٨ — ٥٩ .
(٣٦) الأنبياء ٤٤ .
(٣٧) الرعد ١٣ .
(٣٨) الرعد ٣١ .
(٣٩) النحل ٢٦ .
(٤٠) الأعراف ١٣٠ .
(٤١) الأعراف ١٣٣ .
(٤٢) الاعراف ١٦٢ .
(٤٣) الاعراف ٦٤ .
(٤٤) الأعراف ٧٨ .
(٤٥) البقرة ١٥٥ .

(فارسلنا عليكم ريحا صرصرا في ايام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا .. واما ثمود .. فاخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون . ونجينا الذين امنوا وكانوا يتقون) (٤٦) .

(وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهي ظالمة ان اخذه اليم شديد) (٤٧) .

ويبلغ التهديد باعتماد المشيئة الالهية للقوى الطبيعية لمواجهة الكفر والغرور البشريين حدا كبيرا من الوضوح والقوة في عدد من الايات ، وتزداد نبرته ارتفاعا : (أفلم يروا الى ما بين ايديهم وما خلفهم من السماء والأرض ان نشا نخسف بهم الارض او نسقط عليهم كسفا من السماء ، ان في ذلك لآية لكل عبد منيب) (٤٨) .

(أامنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فاذا هي تمور ؟ ام امنتم من في السماء ان يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير ؟) (٤٩)

(قل : ارايتم ان اصبح ماؤكم غورا فمن ياتيكم بماء معين ؟) (٥٠) .

وفي هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة ، وفي معارك بدر والخندق وحنين وغيرها ، تتجاوز المشيئة الالهية اعتماد السنن والنواميس الطبيعية (المادية) وتصدر امرها الى الملائكة ، والى جند الله التي لا ترى من قوى الكون الروحية ان تنزل الى (الساحة) لكي تقف الى جانب المؤمنين ورسولهم وهم يجاهدون من اجل (تنفيذ) حكم الله في الأرض :

(.. اذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم اني ممدكم بالف من الملائكة مردفين . وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر الا من عند الله ان الله عزيز حكيم .. اذ يوحي ربك الى الملائكة اني معكم فثبتوا الذين امنوا سالقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان) (٥١) .

(ولقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون . اذ تقول للمؤمنين : الن يكفيكم ان يمدكم ربكم بثلاثة الاف من الملائكة منزلين . بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة

(٤٦) فصلت ١٦ — ١٨ .
(٤٧) هود ١٠٢ .
(٤٨) سبا ٩ .
(٤٩) الملك ٣٠ .
(٥٠) الملك ١٦ — ١٧ .
(٥١) الانفال ٥ — ١٤ .

كتابخانه آستان قدس رضوی

ـسومنين .. وما جعله الله الا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ...) (٥٢) .

(لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ، ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وانزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين) (٥٣) .

(الا تنصروه فقد نصره الله اذ اخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ، فانزل الله سكينته عليه وايده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم) (٥٤) .

(يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فارسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا) (٥٥) .

اننا اذن ـ ونحن نتكلم عن الفعل الالهي المباشر ـ امام قوتين كونيتين يسخرها الله لتحقيق كلمته : قوة الطبيعة المادية المنظورة ، وقوة الروح غير المنظورة .. في الاولى نلتقي بنماذج شتى من اعتماد القوى الطبيعية لمواجهة الضلف والكفر والغرور البشري : السيل ، الجفاف ، الخسف ، الصيحة ، الخسف (او الزلزال او الرجفة) ، الغرق ، الصاعقة ، الطوفان ، الحشرات ، المطر العنيف ، الاوبئة ، الريح العاتية ، الاماتة الجماعية ، تمزيق المجتمع ، الخوف ، الجوع ، ثم الدمار الشامل دون الاشارة الى وسيلة بالذات .

وفي الثانية نلتقي بجند الله التي لا ترى وبحشود الملائكة ، وبالطاقات الروحية التي لا تحدها حدود ، والتي تستطيع في لحظات ان تقلب الهزيمة الى نصر وان تمنح القلة المجاهدة مقدرة هائلة على المقاومة والثبات .. ودائما تكون قوى الغيب التي لا ترى ، والتي لا تعمل فيها مقاييسنا النسبية التجريبية القاصرة ، اكثر قدرة واسرع عملا (وما يعلم جنود ربك الا هو) !!

* * *

ان احدى الملامح الاساسية التي تميز التفسير الاسلامي عن سائر التفاسير انه يفرد للبعد الغيبي ، ماضيا وحاضرا ومستقبلا ، ساحات واسعة .. ويجعله احد الشروط

(٥٢) آل عمران ١٢٣ ـ ١٢٦ .
(٥٣) التوبة ٢٦ .
(٥٤) التوبة ٤٠ .
(٥٥) الاحزاب ٩

الاساسية للايمان ، بل اهمها على الاطلاق ، اذ بدونه لن تتحقق اية تجربة ايمانية .. ايمان بم ؟ بالله الذي لا تدركه الابصار ، وبعملية خلقه الدائمة التي تند عن احاطة الانسان ذي المنافذ الحسية المحدودة والقدرات العقلية النسبية ، وبوحيه الذي ينقل للبشرية تعاليم السماء بواسطة انبياء الله ورسله ، وبمعطيات هذا الوحي البعيد من ايمان بالبعث والحساب والجزاء .. ومن ثم كان اي تردد ازاء اليقينيات الغيبية التي يطرحها القرآن ، او التي تنبثق من اعماق البداهات الفطرية ، انما هو رفض للقاعدة التي لا يقوم بدونها ايمان ..

اننا نلتقي في اول مقطع من كتاب الله بهذه البديهية ، وتتوالى بعدها فيما يزيد على الخمسين موضعا (الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون) . (٥٦)

ومن ثم فان لنا ـ على مستوى الحركة التاريخية ـ ان نتصور مدى المساحة التي يشغلها الغيب في صياغة الاحداث وتوجيهها .. ابتداء من خلق الاشياء والاحداث بقوة الكلمة (كن) والتي لا ندري بمقاييسنا النسبية كنهها وابعادها .. وانتهاء بمصائرنا اليومية الفردية والجماعية ، والتي يختم عليها الموت الذي يجيء على حين غفلة متخطيا اي تحديد مسبق ، متحديا اية قدرة طبيعية على صده عن اداء مهمته (وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس باي ارض تموت) (٥٧) (اينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة) (٥٨) (قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم) (٥٩)

وبين هذا وذاك كل احداث التاريـ ووقائعه التي اخذت هذا الاتجاه او ذاك واكتسبت هذه السمة او تلك ، والتي لم يكن الانسان والطبيعة فيها سوى استمرار حر او مقدر لما يدور في ساحة الغيب وفق مقاييس الحق والعدل الابديين .

ان تاريخ البشرية ، منذ فجـ وحتى تقوم الساعة ، يشهدنا عا امتداد مطامح الانسان ورؤ ومنازعه صوب عالم الغيب ، وتجا

(٥٦) البقرة ١ ـ ٥ .
(٥٧) لقمان ٣٤
(٥٨) النساء ٧٨ .
(٥٩) آل عمران ١٥٤ .

وس والمنظور .. وهذه الرغبة في الامتداد الى ما وراء النسبيات والحواجز المادية، مركوزة في جبلتنا الادمية ، محفورة في ثنايا فطرتنا كحفر الخطوط المتعرجة الثابتة على ابهام كل انسان، وانَّنا برفضنا هذا البعد الغيبي نمارس عملية تزييف وتزوير في تفسيرنا للتاريخ البشري، ونلغي من حسابنا مساحات اساسية واسعة من فاعلياته ومعطياته ، لا لشيء الا لانها لا تخضع لمقاييس الحس وموازين التجريب المادي المباشر .. ولكن من قال ان وجدان الناس وعواطفهم وتكوينهم الفطري الاصيل وبداهاتهم اليقينية ومنازع نفوسهم ، بما تعكسه جميعا من معطيات ، انما هي خارجة عن نطاق التاريخ ؟ اليس هو تاريخ الانسان، فكيف نستبعد من حركته وننفي من ساحته اشد تجاربه ومعطياته التصاقا بالوجود البشري ؟

انه ما دام هنالك (موت) يجيء فيحسم حياة الانسان على الارض ، ويكفها عن البقاء والامتداد فان معنى هذا ان يتوق الانسان للتعويض عن هذا الانقطاع بالخلود في عالم آخر باق ممتد لا تقطع فيه ولا غياب .. وان الاديان جاءت لكي تمنح الانسان معادلة منطقية متوازنة تمكنه من مجابهة تحديات الموت ، وفق موازين الهية عادلة ، وقيم فوقية شاملة ، يتجاوز بها الانسان التخبط والارتجال في تجربته الدينية ازاء الغيب .

ان الموت الذي لا يستثني من واقعته احد ، والذي يحدثنا القرآن عنه في اكثر من موضع :

(قل ان الموت الذي تفرون منه فانه ملاقيكم) . (٦٠)

(كل نفس ذائقة الموت ثم الينا ترجعون) . (٦١)

(إنك ميت وانهم ميتون)(٦٢) .

(وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد، افإن مت فهم الخالدون ؟ كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون) . (٦٣)

الموت .. هذه الواقعة القائمة التي لن يفلت من نزولها احد ، لا يجيء – في التصور القرآني – بمثابة نقمة او عقاب ينزل على رؤوس الناس ، كما هو الحال في التصور الكلاسيكي الذي يبرز واضحا في (التراجيديا) اليونانية ، انما هو

(٦٠) الجمعة ٨ .
(٦١) العنكبوت ٥٧ .
(٦٢) الزمر ٣١ .
(٦٣) الانبياء ٣٤ – ٣٥ .

(واحد) من تحديات كثيرة في عالم الانسان من اجل ان تبعث فيه التوتر الدائم والطموح الابدي للتغلب والتفوق والانتصار ، وتمنعه من ان يسلم نفسه للكسل والتراخي والاتكالية التي تقف على النقيض حركة وفاعلية وردود مستمرة على وفاعلية وردود مستمرة على التحديات القائمة ومن ثم فان لنا ان نتصور المساحات الواسعة في التاريخ ، تلك التي تشكلها هذه الردود الدائمة على تحديات الموت ابتداء من طموح الانسان الى الخلود الكامل وتشبثه بالاديان التي يصنعها على هواه او يتلقاها عن السماء لكي تمنحه هذا الامل الكبير .. وانتهاء بكثير من فاعلياته في ميادين الفكر والفن والاجتماع والابداع لتحقيق بعض من هذا الامل في الخلود الذي يطمح اليه .

ان نزوع الانسان الى الخلود ، وامتداده الى عالم الغيب، وتشبثه – بالتالي – بالاديان التي تتجاوز به دوائر المنظور والملموس وحواجز الغرائز والشهوات .. مركوزة جميعا في فطرتنا ، محفورة في تكويننا ، وليس كما يرى (الماديون) من انها محاولة بورجوازية لاسكات الجائعين وتخديرهم بالوعد بجنة اخرى موهومة غير جنة الارض التي يتنعم بها المالكون ، لان هذا النزوع الغيبي – الديني سبقه في التاريخ ظهور الطبقات وتحكم المالكين بالذين لا يملكون ... وليس كذلك ما يراه (فرويد) من انها محاولة يغطي به الانسان على عقدة (اوديب) التي تدفعه الى كراهية ابيه ، فيتحول بهذه التغطية الى عبادة ابيه ، والا لكانت عقدة (الكترا) تسوق النساء الى عبادة امهات مؤنثة ، وليس (إلها) يند عن هذا التقسيم البشري النسبي الزائل !!

ان النزوع الديني ليس هذا وذاك ، انه اسبق واعمق واشمل من اي تفسير يريد ان يرده الى مقولات نسبية مسبقة لكي يرغمه على الانسجام ومعطياتها ، الامر الذي نجده بارزا في مناهج الغربيين التي تتضخم في انفعاليتها وتعميمها الى حد الورم والغثيان .

ان القرآن الكريم يحدثنا بشمولية وواقعيته المعهودة عن هذه المسألة ويردها الى لحظة الخلق الاولى حيث هذا التقابل الفعال بين الموت والخلود ، بين الفناء والبقاء (.. فوسوس اليه الشيطان قال يا ادم هل ادلك على شجرة الخلد وملك

لا ى ؟) (٦٤) ونحن نعرف جميعا ماذا كانت النتيجة ، الا يحصل آدم على الخلود الا بعد اجتياز تجربة العمل والاختبار واثبات الوجود في الارض ، والتي لا بد لها من نهاية ، والا فقدت مبرراتها اساسا .. ويجيء الموت بمثابة انهاء للتجربة ، كي يهيأ الانسان بعدها للحساب العادل على ما قدمت يداه هناك ..

وهكذا يبرز الموت مرة اخرى ، قيمة ايجابية فاعلة في تاريخ البشرية ، وتحد خطير يضع الانسان دائما في مواقع التوتر والرد والفعل والابداع .. اكثر من هذا ، انه يعيده الى فطرته الاصيلة وتكوينه الذاتي لكي لا يركن الى حواسه وغرائزه وحدها فيطفو على السطح ، ولكي يتذكر دائما ان هنالك قوى اخرى ، وعالما آخر ، وامتدادا يتجاوز القريب الملموس الى آفاق الغيب .. وهو (التذكر) الذي كان بمثابة (التذكرة) لركوب قطارات الاديان وهي تشق الطريق الطويل الى الامل الانساني العميق البعيد .. الخلود ! .. تلك المسيرة التي تغطي مساحات شاسعة من تاريخ البشرية والتي يمثل انكارها وتجاهلها اخطر تزييف في محاولات تحليل الوقائع التاريخية وفرض مكوناتها الاساسية .

والقرآن الكريم ، الذي يسعى دائما الى طرح (المواقف) من كافة زواياها وابعادها يبين لنا في اكثر من موضع انه ليس الموت وحده ، هذا الخوف الاكبر ، هو الذي يعيد الانسان الذكي البصير الى فطرته ، ويمنحه التذكرة .. انما هنالك مخاوف اخرى عديدة وتحديات طبيعية واجتماعية متنوعة ، تساعد في خلق هذا التوتر الديني الفعال الذي يستمر ويزداد تألقا لدى الذين يقدرون على تفتيت رين قلوبهم وكسر قشرة الصدأ المحيطة بعقولهم وافئدتهم .. بينما يغور ويختفي مرة اخرى ، بمجرد زوال الخطر القريب لدى الذين لايزالون يتحركون ببطء عند حدود الملموس والمنظور تمنعهم غرائزهم وشهواتهم الهابطة عن رؤية فطرتهم على حقيقتها ، ومد مواقفهم النسبية الى كليات الايمان الشاملة التي جاء بها الدين لكي يتجاوز بالانسان الواقع الى ماورائه ، والطبيعة الى الغيب ..

(وما بكم من نعمة فمن الله ، ثم اذا مسكم الضر فاليه تجأرون .. ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون)(٦٥) :

(واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون الا اياه ، فلما نجاكم الى البر ، اعرضتم ، وكان الانسان كفورا .. افأمنتم ان يخسف بكم جانب البر او يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا ! ام امنتم ان يعيدكم فيه تارة اخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا)(٦٦) .

(واذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين اليه ثم اذا اذاقهم منه رحمة اذا فريق منهم بربهم يشركون)(٦٧) .

ومهما يكن من امر فان الحس الديني كامن في نفوسنا تفجره لحظة الصفاء والتأمل والانسجام ، تماما كما تبرزه واضحا لحظات المخاوف والمخاطر والاحزان .. وهو حس يمكن ان نرده الى حاجة الانسان الابدية العميقة الى قوة اكبر من قوته المحدودة الزائلة ، ينتمي اليها ويحتمي بها في مواجهته للعالم والطبيعة والتاريخ .. وما اكبر المساحة التاريخية التي يغطيها هذا الحس في امتداده وارتداده على السواء .

((.. وتتبدل الاحوال .. ويقف المسلم موقف المغلوب المجرد من القوة المادية ، فلا يفارقه شعوره بانه الاعلى .. وينظر الى غالبه من عل مادام مؤمنا ، ويستيقن انها فترة وتمضي ، وان للايمان كرة لامفر منها .. وهبها كانت القاضية فانه لايحني لها رأسا .. ان الناس كلهم يموتون ، اما هو : فيستشهد .. وهو يغادر هذه الارض الى الجنة .. وغالبه يغادرها الى النار .. وشتان شتان !! .. وهو يسمع نداء ربه الكريم :

((لايغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ، متاع قليل ، ثم مأواهم جهنم .. وبئس المهاد .. لكن الذين اتقوا ربهم : لهم جنات تجري من تحتها الانهار ، خالدين فيها نزلا من عند الله ، وماعند الله خير للابرار ..!!)) .

(٦٤) طه ١٢٠ .

(٦٥) النحل ٥٣ ــ ٥٤ .

(٦٦) الاسراء ٦٧ ــ ٦٩ .

(٦٧) الروم ٣٣ .